

الإمام علي (عليه السلام) في مرآة الشعر

لم يكن لغيره من الصحابة على كثرتهم وعظيم فضائل بعضهم ما كان له (عليه السلام) في ديوان الشعر قديماً وحديثاً منذ صدر الإسلام وإلى عصرنا هذا...^(١) فقد راح الشعراء المبدعون والأدباء البارعون من المسلمين وغيرهم يحملون دواوينهم وقصائدهم بمناقب وفضائل علي (عليه السلام) حتى سارت بها الركبان وانتشر عبرها...، وقد تعرّض بعض الشعراء الكبار والمكثرين من الشعر إلى اللوم والعتب مرّةً وإلى التقريع أخرى إذا خلا ديوانهم من قصيدة تتضمّن فضيلة لعلّي أو شيئاً من صفاته وخصاله، وهذا الشاعر الكبير المتنبي عوتب مراراً على عدم ذكره لعلّي (عليه السلام)، فما جوابه وتألّق حيث قال:

وتركتُ مدحي للوصي تعمّداً إذ كان نوراً مستطيلاً شاملاً
وإذا استطال الشيء قام بنفسه وصفات ضوء الشمس تذهب باطلاً

وها نحن أمام لفيف منهم ومقتطفات من قصائدهم التي سجّلوا فيها مواقف عظيمة ومشاهد جليلة كانت من نصيبه، ومناقب وخصالاً فريدة تحلّى بها بفضل

من الله تعالى ورسوله ﷺ فزهت قصائد هم ولو بشيء يسير من ذلك الطود الشاخ؛
من المناقب والصفات والمشاهد لسيد المتقين ومولى الموحدين كما خلدوا بها.
ومن هولاء :

● الشيخ محمد بن عبد المطلب المصري (ت ١٣٥٠) نقتبس شيئاً من قصيدته
الطويلة جداً:

أبا السبطين كيف تفي المعاني	نثراً في مديحك أو نظاما
مقام دونه نُجَب القوافي	وإن كانت مسومة كراما
فحسبك يا أخا الشعراء عذراً	رمى بها مكاناً لن يراما
وما أدراك ويحك ما عليّ	فتكشف عن مناقبه اللثاما
تبصر هل ترى إلا عليّاً	إذا ذكر الهدى ذاك الغلاما
غلام يبتغي الإسلام ديناً	ولما يعد أن بلغ القطاما
وصلّى حيدر فشأى قريشا	إلى الحسنى فسمّوه الإماما
كأنّي بالثلاثة في المصلّى	جميعاً عند ربّهم قياما
تحبيهم ملائكة كرام	وتقرئهم عن الله السلاما
يمد إلى النبي يد ابن عم	بحبل الله يعتصم اعتصاما
وإذ يدعو العشيرة يوم جمع	لينذر في رسالته الأناما
فكهل في جهالته تولى	وشيخ في ضلالته تعامى
وأيده على التقوى أخوه	إذا ما خاف كل أخ وخاما
صغير السن يخطر في ابناء	فلا ضيماً يخاف ولا ملاما
وقد جمع الحجى والدين فيه	خلاتق تجمع الخير اقتساما
فما أوفى على العشرين حتى	شهدنا من عظامه عظاما
فلن ينسى النبيّ له صنيعاً	عشية ودع البيت الحراما
فأرخصها فدّى لأخيه لما	تسجى في حظيرته وناما

وأقبلت الصوارم والمنايا
فلم يأبه لها أنفاً عليّ
وأغشى الله أعينهم فراحت
وفي أمّ القرى خلى أخاه
أقام بها ليقضيه حقوقاً
كأنني بابن عتبة يوم بدر
ولو علم الوليد بمن سيلقى
ومن غدت البتول إليه تهدي
بأمر الله قد زفت إليه
كأنني بالملائك إذ تدلت
فلو كشف الحجاب رأيت فيه
أطافوا بالحظيرة في جلال
تفيض على منصتها وقاراً
فلا يحزن خديجة أن تولت
تولاهما الذي ولي أباهما
قران زاده الإسلام يمناً
فإن تك خير من عقدت ازاراً
فإن تسأل فسائل عنه أحداً
وحطم غمد صارمه عليّ
هنالك بادر الكرار لماً
إذا ما همّ أقعده أخوه
مكانك يا علي فذاك عمرو
فقال وإن يكن عمراً فإني

لحرب الله تنتحم انتحاما
ولم تقلق بجفنيه مناما
ولم تر ذلك البدر التماما
على وجد به يشكو الأواما
على الهادي بها كانت لزاما
يعاني تحت مجثمه جثاما
لألقي قبل مصرعه السلاما
بني في النجم بيتاً لا يسامى
عشية راح يخطبها وساما
بذاك البيت تزدهم ازدحاماً
جنود الله تنتظم انتظاما
صفوفاً حول فاطمة قياما
وتكسو حسن طلعتها وساما
ولم تبلغ بجلوتها مراما
رسالته وزوجها الإماما
وشمل زاده الحب التئاما
وأكرم كل من ارخت لثاماً
غداة هناك طير الموت حاماً
وذب عن النبي بها وحامى
غدوا والرعب قد منع الكلاما
وزاد إلى اللقاء جوّى فقاما
له الأبطال يوم وغى تحامى
علي سوف ألجمه الحساما

فلم يك غير أن أودى ابن ودّ
وسائل يوم خبير عن علي
ولم تغن الحصون ولا الصياصي
وأقبل مرحب في البأس يحبو
وما علم الفتى أنّ المنايا
وان له من الكرار يوماً
علاه بضربة لو أنّ رضوى
وسل اهل السلام تجد علياً
حوى علم النبوة في فؤاد
ونفساً لم تذق طعم الدنيا
طوى عنها على الضراء كشحا
غذاها الدين مذ كانت فشبت

وخاض السيف في دمه وعاما
تجد فيها أثره جساما
وإن قام الحديد لها دعاما
وكان البأس صاحبه لزاما
خططن بذى الفقار له مناما
عبوساً مدنياً منه الحماما
تلقاها لعاد بها هياما^(٢)
إمام الناس يبتدر السلاما
طما بالعلم زخاراً فطاما^(٣)
ولا لذت من الدنيا طعاما
وعن فاني زخارفها تسامى
على التقوى رضاعاً وانقطاما

● الشيخ عبد المهدي مطر:

ارصف بباب علي أيها الذهب
وقل لمن كان قد أقصاك عن يده
لعلّ بادرة تبدو لحيدرة
فقد عهدناه والصفراء منكرة
ما قيمة الذهب الوهّاج عند يد
ما سره أن يرى الدنيا له ذهباً
ولا تضجر أكباد مفتتة
أو يسقط الدمع من عيني مولهة
تهفو حشاه لأنات اليتيم بلا

واخطف بأبصار من سروا ومن غضبوا
عفواً إذا جئت منك اليوم اقترب
أن ترتضيك لها الأبواب والعتب
لعينه وسناها عنده لهب
على السواء لديها التبر والترب
وفي البلاد قلوب شفها السغب
حتى يذوب عليها قلبه الحذب
أجابها الدمع من عينيه ينسكب
أمّ تناغي ولا يحنو عليه أب

هذي هي السيرة المثلى تموج بها روح الوصي وهذا نهجه اللهب
 فاحذر دخول ضريح أن تطوف به إلا بإذن علي أيها الذهب
 باب به ريشة الفنان قد لعبت فأودعته جمالاً كله عجب
 تكاد لا تدرك الأبصار دقته ممّا تماوج في شرطانه اللهب
 كأن لجة أنواع تموج به خلالها صور الرائين تضطرب
 سبائك صبها الإبداع فارتسمت روائع الفن فيها الحسن منسكب
 يدنو الخيال لها يوماً لينعتها وصفاً فيرع منكوساً وينقلب
 أدلت بها يد فنان منقمة تعنو لروعتها الأجيال والحقب
 ملء الجوانح ملء العين رهبتها ومربض الليث غاب ملؤه رهب

● العالم الجليل السيد محمد جمال الهاشمي:

□ أبا الحسين

خشعتُ يَهْلُلُ حَبِّهَا وَيَكْبُرُ روحٌ تموتُ علي ولاك وتحشرُ
 أني نظرتُ أراك ترقب نظرتي فكأن عيني في وجودك تنظر
 هذا جمالك وهو يغمر عالمي حباً تذوب به الحياة وتصهر
 في كل أونة أراك بصورة تخفي ملامحها علي وتظهر
 كالروح تظهرها الحياة وإنما ناموسها بظهورها يستتر
 قسماً بحبك وهو أقدم ما به أزهو علي كل الوجود وأفخر
 ما حاولت نجوى ولاك قريحتي إلا وعص شعوري المتفجر
 فإذا نطق فإن وحيك ناطقٌ بفي، وإن أمسكت فيك أفكر
 روعي فداك، وسر روعي كامنٌ بك، فالفدا لك منك فضل يؤثر
 زدني هوئى تزدد بذاك ذخيرتي في النشأتين، ومثل حبك يذخر

أبا الحسين، وفي حسينك صورة
عفواً إذا زلَّ الشعور، فموقفي
ناجيتُ حَقَّك وهو نهبُ مطامع
ونظرتُ روحك وهي من لاهوتها
وقفوا وسرتَ مع الخلود، وهكذا
ولأنتَ أقدرُ لو أردتَ إمارةً
ولك المواقف لا يغيب شعاعها
يزهو بها بدرٌ، ويفخر خندق
وشواهد نبوية ما كررتُ
ولتلك أوسمةٌ إذا ما قوبلت

● السيد مصطفى جمال الدين:

سَيِّدِي أَيُّهَا الضمير المصفي
لك مهوى قلوبنا وعلى زا
نحن عشاقك الملحون في العش
نحن نهواك لا لشيء سوى أنك
ومفاتيح من علوم حباها
ضرب الله بين وهجيكما حدًّا
وإذا الشمس أذنت بمغيب

والصراط الذي عليه نسيرُ
دِكُّ نُـرْبِي عَقولنا ونمير
سق وإن هام في هواك الكثيرُ
من أحمد أخ ووزيرُ
لك إذ أنت كنتزها المذخورُ
فأنت المنار وهو المنيّرُ
غطت الكون من سناها البدورُ

● بولس سلامة، من ملحمة التاريخة الكبرى (عيد الغدير):

سمع الليل في الظلام المديد
من خفي الآلام والكبت فيها
حرّة لزهها المخاض فلاذت
همسة مثل أنة المفؤود^(٤)
ومن البشر والرجاء السعيد
بستار البيت العتيق الوطيد

كعبة الله في الشدائد تُرجى
لا نساء ولا قوابل حفت
يذر الفقر أشرف الناس فرداً
أينما سار واكبته جباة
صبرت فاطم على الضيم حتى
وإذا نجمة من الأفق خفت
وتدانت من الحطيم وقرت
تسكب الضوء في الأثير دفيقاً
واستفاق الحمام يسجع سجعاً
بَسَمَ المسجد الحرام حبوراً
كان فجران ذلك اليوم فجرٌ
هالت الأم صرخة جال فيها
دعت الشبل حيدراً وتمنت
أسداً سمّت ابنها كأبيها
بل علياً ندعوه قال أبوه
ذلك اسم تناقلته الفيافي
يهرم الدهر وهو كالصبح باقٍ

فهي جسر العبيد للمعبود
بابنة المجد والعلا والجلود
والغني الخليع غير فريد
وظهور مخلوقه للوجود
لهث الليل لهثة المكود
تطعن الليل بالشعاع الحديد
وتدلّت تدلي العنقود
فعلى الأرض وابل من سعود
فتهش الأركان للتعريد
وتنادت حجاره للنشيد
لنهار وأخر للوليد
بعض شيء من همهمات الأسود
وأكبت على الرجاء المديد
لبدة الجد أهديت للحفيد
فاستفز السماء للتأكيد
ورواه الجلمود للجلمود
كل يوم يأتي بفجر جديد^(٥)

● لبيب بيضون، وقصيدته في فضائل الإمام عليه السلام نذكر بعضاً منها:

هو الأمير وساقى الحوض منفرداً

هو الإمام بلا شك ولا ريب

أعداؤه شهدوا بالحق إذ عجزوا

أن ينكروا فضله في كل منقلب

قد حاولوا كتمها دوماً وما علموا
 أن الروائح ما إن تخفها تطب
 وكيف يمكنهم طمساً لشمس ضحى
 تختال مشرقاً مشبوبة اللهب
 ناراً على علمٍ في كلِّ موقعة
 حسامه مشرق الحدّين لم يغب
 ويوم موقعة الأحزاب ضربته
 دكت صروح العدا رأساً على عقب
 وفي العبادة ما أحلى تعبده
 على الجبين ترى سيماه والركب
 إن شئته بطلاً في الحرب متصباً
 أو ساجداً تلقه والدمع في سلب
 وفي السياسة حكم الله ديدنه
 دون الدهاء قرين الكفر والكذب

الهوامش :

- (١) أنظر كتاب الغدير للشيخ الأميني، ونهاية الجزء الأول من كتاب في رحاب أئمة أهل البيت عليهم السلام وبداية المجلد التاسع من موسوعة الإمام علي عليه السلام وغيرها.
- (٢) الهيام: الرمل المهيل.
- (٣) طام: حسن عمله.
- (٤) في الغدير: المفقود.
- (٥) وردت هذه الآيات في الغدير ٦: ٣٧ و ٣٨.